

مقدمة الجزء الأول

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

لماذا نفكر في الدراسات الحضرية التي سبقت نهاية الحرب العالمية الثانية ؟ يُقرّ الطلاب عمومًا بضرورة إيلاء بعض الاهتمام للتاريخ الأكاديمي لتخصصهم . في حالة المقالات الأربع الاتية ، يتجاوز هذا الاهتمام مجرد "دفع الرسوم (التخصصية)" ، إذ أثرت كلّ منها ، بطرق مختلفة ، على جغرافية الحضر لأكثر من ستة عقود . على الرغم من أن جغرافيين كتبوا مقالين فقط ، إلا أنه يُمكن الإشارة إلى المقالات الأربع جميعها في الكتب المدرسية الأولى المخصصة لهذا التخصص الفرعي وفي غالبية النصوص التمهيدية اليوم . ولضمان استمرارية ظهورها ، يُمكننا تسمية هذا القسم بـ "الرواد" تقديرًا للباحثين الذين أنتجوها - أو "الكلاسيكيات" احترامًا للوجود الدائم للنصوص . بدلاً من ذلك ، سُمّي القسم "**الأسس**" للإقرار بأنه خلال منتصف القرن العشرين ، كانت هناك مرحلة عمد فيها الجغرافيون إلى إنشاء مجال فرعي جديد مُخصّص لتحليل المناطق الحضرية ، ورأى هؤلاء الجغرافيون الحضريون أن هذه المقالات جديدة بالدراسة.

ومع أن تأثيرها على تطور جغرافية الحضر لا جدال فيه ، إلا أن النظر في استمرار أهمية هذه النصوص الأربعة يتطلب دراسة فردية . وحتى بعد هذا الفحص ، ونظرًا لتنوع المواضيع والمناهج التي تتضمنها جغرافية الحضر اليوم ، سيتبع ذلك نقاش حيوي حول مكانتها في هذا التخصص . وتنعكس هذه النقاشات في مواضيع الأقسام اللاحقة . وبينما قد يكون جغرافيو الحضر ملتزمين بتخصص تقدمي ، فإنهم يواصلون الانخراط في أدبيات الماضي سواءً لتوسيع نطاق النظرية الحضرية المرتبطة بالكتابات السابقة ؛ أو على الأرجح ، لمقارنة الظروف المعاصرة بالظروف التاريخية ، بما في ذلك افتراضات المدارس الفكرية السابقة ؛ و/أو للاعتراف بتأثير الفكر الجغرافي على السياسات المعاصرة والحالية وبناء المعرفة .

نعتمد على هذه الأدبيات لأسباب مختلفة ، لكنها ساهمت بلا شك في إثراء نقاشنا المستمر حول الأنماط والعمليات الحضرية بمفردات واستعارات أساسية . يتطلب وضع هذه المقالات المؤثرة في سياقها إدراكًا للزمان والمكان المحددين المرتبطين بظهور هذا المجال الفرعي . تطورت جغرافية الحضر في أواخر أربعينيات القرن العشرين من مزيج مُعاصر من الجغرافيا التقليدية ، وتأثير مدرسة شيكاغو لعلم الاجتماع ، والاستجابات المعاصرة لتخطيط المدن ، وبرزت كمجال دراسي منهجي في خمسينيات القرن العشرين مع الأهداف الحديثة للعلوم الاجتماعية المعاصرة (تافي 1990: 422). بالنسبة لهذا الجيل الأول من جغرافي المدن الأمريكيين والبريطانيين ، يُعد كتاب "قراءات في جغرافية الحضر" (ماير وكوهن 1959) النص الذي حدد المجال الفرعي الجديد للجغرافيا الحضرية خلال مسيرتهم الدراسية . في مقدمة هذا النص المحوري ، وصف المحرران هارولد ماير (1916-1994) وكلايد كون (1911-1989) هذا المجال بأنه "يمر الآن بمرحلة صيغت فيها بعض مفاهيمه وتعميماته بوضوح ، وعُرض فيها عدد كبير من الفرضيات كأساس لمزيد من البحث" . علاوة على ذلك ، أعلنّا أنهما يركزان على المفاهيم والنظريات بدلاً من المناهج الوصفية القديمة . جمع كتاب ماير وكوهن ريدر عدة فروع من العمل في إطار مكاني مهيم ، محددًا بذلك البنية الأساسية لجغرافية الحضر التي استمرت في المناهج الجامعية حتى ثمانينيات القرن العشرين .

في إشارة إلى "الوتيرة المتسارعة التي يتقدم بها مجال جغرافية الحضر" ، زعم ماير وكوهن أن الكثير من الدراسات التي وُلدت قبل عام ١٩٤٥ قد حلت محلها مساهمات أحدث اعتمدت على صياغات نظرية جديدة ، وأساليب أكثر تطورًا ، وتقنيات حديثة مُطورة حديثًا . ومع ذلك ، فقد استوفت الأعمال السابقة

لخبير اقتصاديات الأراضي هومر هويت ، وأعمال الجغرافيين تشونسي هاريس وإدوارد أولمان ، معايير التقييم المطلوبة ، وأدرجت في المجلد ، بينما كان تأثير عالم الاجتماع إرنست بيرجس حاضراً من خلال استعارته لنموذجه للمنطقة متحدة المركز . كما سنرى ، تُعدّ الاقتباسات عمليةً ساهمت بشكل كبير في تطوير هذا التخصص الفرعي الجديد . وكون هذا القسم هو القسم الوحيد في كتاب "قارئ جغرافية الحضر" الذي يتضمن أعمالاً لغير الجغرافيين ، يؤكد أهمية الاقتباسات الصافية في هذا المجال منذ نشأته.

وعلى الرغم من أن المؤلفين الأربعة المدرجين هنا لم يتشاركوا الخلفية التخصصية نفسها ، إلا أنهم تقاسموا الموقع الجغرافي نفسه . ويرتبط كلٌّ من هؤلاء الرواد في نظرية المكان الحضرية بجامعة شيكاغو ، التي سهّلت بلا شكّ عملية الاقتباسات ، وتطرح أسئلةً مثيرةً للاهتمام حول كلّ من علم اجتماع المعرفة والجهود المبذولة لتحديد حدود التخصصات (ينظر Entriken 1980) . وقد برزت مدينة شيكاغو الصناعية في أوائل القرن العشرين بشكلٍ بارز في تطوير النظرية الحضرية ، حيث كانت بمثابة النموذج الأيقوني لأمريكا الشمالية للحضر ، وموقع العمل الميداني لأعضاء مدرسة شيكاغو لعلم الاجتماع .

جسد كتاب "نمو المدينة" لبورغيس ، وهو المقال الأول في هذا القسم ، العمل الرائد حول البنية الاجتماعية للمدينة الذي أجراه أعضاء مدرسة شيكاغو . لم يُنتج كتاب "نمو المدينة" أحد أشهر النماذج في العلوم الاجتماعية فحسب ، بل كان للمجلد الذي نُشر فيه في الأصل - "المدينة" (1925) الذي حرره أعضاء مدرسة شيكاغو روبرت بارك وإرنست بورغيس ورودريك ماكنزي - تأثيرٌ هائلٌ أيضاً . وكما لاحظ الجغرافي مايكل دير مؤخراً ، فإن كتاب "المدينة" ما يزال "يحتفظ بحيوية هائلة تتجاوز بكثير أهميته كوثيقة تاريخية" (2003: 500) . و جادل دير بأن هذه الحيوية تتوافق مع تعبير الكتاب عن النموذج التحليلي الحداثي المطبق على الحالة الحضرية ، والذي ظل شائعاً طوال معظم القرن العشرين ، وربما حتى القرن الحادي والعشرين . تشمل الافتراضات التي تدعم هذا النموذج : التقدم الخطي للمجتمع الذي يتطور من التقليدي إلى الحديث ، ومع هذا التقدم ، يتغير بناء العلاقات الاجتماعية ؛ وتفسير قائم على الوكالة للعملية الحضرية ، مع خيارات الأفراد ، بدلاً من القيود الهيكلية ، لتفسير الوضع الحضري ؛ ومفهوم المدينة ككل موحد ينظم فيه المركز المناطق الداخلية . يدمج مقال بيرجس كلاً من هذه الافتراضات في شرحه لكل من نمط وعملية النمو في نموذج المنطقة متحدة المركز . قد تفسر البساطة الجذابة لنموذج بيرجس الانبهار الذي استحوذ على أجيال من الجغرافيين وعلماء الاجتماع الآخرين الذين يواصلون التفكير في المناطق متحدة المركز لاستخدام الأراضي على الرغم من الانتقادات العديدة لتقييم بيرجس للنمط والعملية الحضرية .

من الملاحظات المثيرة للاهتمام حول تاريخ هذا التخصص الفرعي ، ما كتبه روبرت ديكنسون (1947) في أحد أوائل كتب جغرافية الحضر ، حيث ذكر أن هذا النمط ينطبق تحديداً على مدينة شيكاغو الصناعية في أوائل القرن العشرين . ومع ذلك ، بحلول خمسينيات القرن العشرين ، عمم النهج المنهجي لكتب جغرافية الحضر المتعاقبة أهميته إلى ما يتجاوز شيكاغو . يمكن القول إن نموذج المنطقة متحدة المركز الذي وضعه بورغيس يتمتع بقيمة استدلالية في دراسة أجزاء من مدن أمريكا الشمالية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . حتى عند دراسة أجزاء من لوس أنجلوس ، التي يعدها الكثيرون النقيض الحضري لنموذج بورغيس ، يستخدم إد سوجا (1989) مصطلحات المناطق والقطاعات لوصف أجزاء معينة أقدم من المدينة .

ومع ذلك ، فقد أصبحت مدرسة شيكاغو ونموذج الحلقة متحدة المركز ، في معظم الأحيان ، بمثابة الركيزة التي ينتقد بها الجغرافيون المعاصرون النظرية الحضرية المتعلقة بمدينة أوائل القرن العشرين . يناقش دير وفلستي (ص 138) ، وكذلك سوجا ، مفهوم مدرسة شيكاغو للمدينة لتسليط الضوء على كيفية ابتعاد رؤية ما بعد الحداثة للعملية الحضرية بشكل كبير عن وجهات النظر الحداثية حول المدينة . يُبرز

آخرون ، مثل ووكر ولويس ، عيوب نموذج مدرسة شيكاغو للنمو الحضري في تفسير حتى المناطق الحضرية في أوائل القرن العشرين ، مُشيرين إلى أن تركيزه على الجغرافيا الاجتماعية للمدينة يُخفي آلية الاقتصاد السياسي للمدينة الأمريكية وتوسّع الصناعة في الضواحي في بداياته . في عام ١٩٣٩ ، طوّر الاقتصادي هومر هويت نسخة مُنقّحة من نموذج بيرجس ، تُنظّر النمو الحضري كنمط تنمية على شكل نجمة ، وليس متحد المركز ، حيث ينتشر استخدام الأراضي من المركز الحضري على طول ممرات النقل. وقد أكّدت نظريته القطاعية، المستندة إلى اهتمامه بسوق العقارات السكنية ، على أنه بمجرد ظهور اختلافات في قيم الأراضي ، تستمر أنماط استخدام الأراضي المُماثلة مع توسّع المدينة. وقد كلّفت إدارة الإسكان الفيدرالية بإجراء هذه الدراسة ، ونُشرت نتائجها في كتاب "هيكل ونمو الأحياء السكنية في المدن الأمريكية" (١٩٣٩). أما المقال الثاني الذي يليه في هذا القسم ، فهو مستمد من دراسته التي أجراها عام 1939 ، لأنه يصف مفهوم "التصفية" في سوق الإسكان ، حيث سعى أصحاب العقارات الأكثر ثراءً إلى حداثة التطوير الجديد ، والعلاقة بين الخصائص الاجتماعية والاقتصادية للسكان السكنيين و استقرار الأحياء . وكما تُذكرنا مناقشات التحديث والشكل الحضري في الأقسام اللاحقة (ينظر سميث، ص 128 ، وبوندي، ص 251 ، ولي، ص 304) ، فإن نموذج هويت عكس الاتجاهات المعاصرة بدلاً من أن يكون مبدأً عالمياً لسوق الإسكان . ومع ذلك ، وانعكاساً لتأثير علم البيئة البشرية على الجغرافيا الاجتماعية البريطانية ، استمر الاهتمام بأنماط السكن الحضري خلال ستينيات القرن الماضي في بريطانيا . عدّل مان نموذجي هويت وبورغيس ليتوافقا مع المدينة البريطانية في عام 1965 ، بينما تحول التركيز الأساسي للبحوث الجغرافية الحضرية في الولايات المتحدة إلى نظرية الموقع المستوحاة من الاقتصاد الكلاسيكي الجديد (ينظر جونستون 1971).

على الرغم من أن نموذج هويت القطاعي كان يُنظر إليه على أنه تقدم في تنظير البنية الداخلية للمدينة ، إلا أن تأثير عمله كان ملموساً على نطاق أوسع نظراً لتأثيره على تفسير أسواق الإسكان المتغيرة . كما ورد في خطاب الإحالة الصادر عن الإدارة الفيدرالية للإسكان ، فقد عدها العمل "دليلاً إرشادياً مفيداً لتطوير الإسكان وإنشاء سوق رهن عقاري سليم " . ولعل دراسة هويت ، التي يعد أكثر اقتصادي الأراضي تأثيراً في عصره ، كان لها آثار عميقة على ممارسات تقييم الإسكان الأمريكية ، وبالتالي على جغرافية المناطق الحضرية لفترة طويلة ، إذ فضّلت البناء الجديد ورسخت التحيز الاجتماعي والعنصري في ممارسات الإقراض. تعكس الأبحاث المنشورة الأولويات والرؤى المعاصرة للمجتمع ، ويؤكد عمل هويت بقوة على التأثير الفوري والطويل المدى المحتمل للبحث على السياسات والبرامج التي تُشكل البيئة الحضرية - مع كل ما يترتب على ذلك (ينظر جاكسون 1985). وقد أتاحت المتطلبات التجريبية لنظريات هويت فرص عمل لعدد من جغرافي شيكاغو خلال أواخر سنوات الكساد . عُيّن هويت مديراً للأبحاث في لجنة خطة شيكاغو عام 1939 ، التي وظّفت هارولد ماير ، من بين آخرين ، لإعداد مسح لاستخدام الأراضي . كان ماير ، الذي حرر لاحقاً أول مجلة جغرافية حضرية ، طالب دراسات عليا في جامعة شيكاغو مع زملائه تشونسي هاريس وإدوارد أولمان . وكما ذكر ماير في عام ١٩٩٠ ، كانت العلاقة بين جغرافية الحضر والتخطيط الحضري في ذلك الوقت وثيقة للغاية ، ومن شأنها أن تُشكل طبيعة هذا التخصص الفرعي الجديد في اتجاهيه التطبيقي والاقتصادي .

كان إدوارد أولمان ، مؤلف المقال الثالث في هذا القسم والمؤلف المشارك للمقال الرابع ، أحد أكثر الجغرافيين تأثيراً الذين عملوا خلال المراحل المبكرة من تطور جغرافية الحضر. في كتابه "نظرية الموقع للمدن" ، لفت أولمان انتباه الجغرافيين الناطقين باللغة الإنجليزية إلى أعمال الجغرافي الألماني والتر كريستالر . أثارت نظرية المكان المركزي لكريستر الاهتمام بالبنية الجغرافية بين المدن بدلاً من البنية الجغرافية داخل

المدينة الواحدة . كان أولمان طالب دكتوراه يُفكر في النمط المكاني المنتظم الذي لاحظته في مدن أيوا عندما "اكتشف" كتاب كريستالر عن نظام مراكز الخدمة في جنوب ألمانيا . نسب أولمان اكتشافه لكريستالر إلى خبير اقتصاديات الأراضي الألماني أوغست لوش (هاريس 1977: 597) . لم يُسهّل لوش نشر أعمال كريستالر فحسب ، بل أنتج أيضًا نظرية مكانية مماثلة مُوجّهة نحو توزيع مراكز التصنيع بعد فترة وجيزة (1940) .

عزى أولمان إلى نظرية المكان المركزي لكريستالر أهمية في تفسير توزيع المستوطنات ، تُضاهي مساهمة نظرية المنطقة متحدة المركز في تفسير استخدام الأراضي داخل المدن . يعكس هذا الثناء الكبير الرغبة في تطوير تعميمات لتخصص يُركّز على نظرية الموقع . سعى كريستالر نفسه إلى استكمال نظرية الموقع لفون ثونن حول استخدام الأراضي الزراعية حول مراكز السوق (1826) ونظرية ألفريد فيبر حول الموقع الصناعي (1909) . ومع اعتماده على تقاليد في العلوم الاجتماعية الألمانية ، رفض كريستالر أساليب البحث الجغرافية التقليدية التي تركز على الأدلة التجريبية ، وركز بدلاً من ذلك على تطوير نظرية قائمة على المنطق يمكن "مواجهتها بالواقع" (بيري وهاريس 1970: 116). أنبأت هذه الرؤية للتخصص بتطور الجغرافيا كعلم مكاني خلال خمسينيات القرن العشرين . وعلى الرغم من جهود أولمان المبكرة لوضع اتجاه جديد للبحث الجغرافي ، إلا أن أبحاث كريستالر لم تحظَ باعتراف كامل بين الجغرافيين الناطقين باللغة الإنجليزية حتى ظهور "مدرسة واشنطن" في ستينيات القرن العشرين (ينظر جونستون 1997: 66-70).

في المقال الأخير من هذا القسم ، لا يتناول تشونسي هاريس وإدوارد أولمان طبيعة المدن فحسب ، بل يحددان إطارًا لجغرافيا الحضر نفسها من خلال تلخيص فئتين عامتين من الأنماط والعلاقات للتحليل - أنظمة المدن والنظام داخل المدينة . العلاقات ، إن ما يهمهم في المقام الأول هو الجوانب الاقتصادية ، وكما يؤكدون صراحةً وبثقة ، **فإن الغرض من هذه المعرفة هو المساعدة في تخطيط مستقبل المدن** . على الرغم من هذا التفاؤل ، فإن نموذج النوى المتعددة الذي يقدمونه كانعكاس للتجزئة المتزايدة للمنطقة الحضرية يشير إلى عدم القدرة على التنبؤ بشكل أكبر مما هو موجود في نموذجي بورغيس أو هويت للنمو الحضري . ويمكن تفسير ذلك جزئيًا باهتمامهم بمجموعة من الأنشطة الاقتصادية بدلًا من التركيز السكاني الفردي للنموذجين السابقين . وقد لخصوا النمط بالإشارة إلى أن الخلايا المتخصصة للنشاط ستتطور وفقًا لمتطلبات محددة لأنشطة معينة ، وقدرات مختلفة على دفع الإيجار ، وميل بعض أنواع النشاط الاقتصادي إلى التجمع معًا.

وضح هاريس أنه لاحظ وجود نوى متعددة في التنمية الحضرية التقليدية لمختلف المدن الألمانية وكذلك في لندن (1990: 411) . ومع ذلك ، فإن غالبية الجغرافيين يفسرون التصنيف المكاني لهاريس وأولمان على أنه تنبؤ بمستقبل المدينة الغربية اللامركزية . إن إطار عملهما لجغرافيا الحضر ، إلى جانب طرح نموذج متعدد النوى للشكل الحضري ، يُميز "طبيعة المدن" كمعلم بارز في تطور هذا التخصص الفرعي . يؤكد هاريس وأولمان على وجود نمط مكاني منظم في تخطيط المدينة وتسلسلات هرمية واضحة بين المدن - وبعد أكثر من نصف قرن ، ملا يزال من الممكن تمييز هذه الفئات العامة في هذا التخصص. ومع ذلك ، **فقد حلت الأسئلة المتعلقة بالعوامة اليوم محل نظرية المكان المركزي في فهمنا للتسلسل الهرمي**

بين المدن ، وأصبحت نماذج الشكل الحضري أكثر لامركزية . كما يشير روبرت ليك في إحياء الذكرى الخمسين لكتاب "طبيعة المدن" ، فإن مقال هاريس وأولمان "وضع معيارًا يُمكننا من خلاله تتبع التقدم التراكمي لهذا المجال" (1997: 2). وهكذا ، فبينما يُشير إلى بعض الروابط الأنسابية ، فإنه يُبرز أيضًا التغيير الجذري في كلٍّ من مدننا وتخصصنا.